وقائع مارتان وليديك

للكاتب الشهير ولبرت كوت

بقلم الأستاذ محمد كامل حجاج

إن الوحشة التي سادت غابات هرتس بألمانيا ولا سيما الجبال المسماة بلوكبرج أوبروكنبرج قد جعلت من هذه الأخيرة مسرحاً ممتازاً للأقاصيص التي تسرد فيها أخبار السحرة والجن والشياطين والخيالات . وأغلب سكان هاته المقاطعة حطابون أو عمال في المناجم . وهذا النوع من المعيشة قد جعلهم يعتقدون بالخرافات ويعزون الحوادث الطبيعية إلى السحر والجن والشياطين

ومن الحكايات التي ذاعت في هذه البلاد الموحشة والتي يشاع فيها أن غابة هرمس يسكنها شيطان ويصورونه بشكل عملاق آدمي متوج الرأس وبوسطه حزام من أوراق البلوط وبيده شجرة صنوبر قلعت من الأرض بجذورها . ويزعم كثير من الناس أنهم شاهدوه مراراً في أطراف واد صغير يتنزه فيه أو في سفح الجبل . وهذا الزعم مقبول عندهم ولكن العصر الحاضر لا يقبله ويعزوه إلى خداع النظر

وكانوا يعتقدون في العصور القديمة أن هذا الشيطان كان يتاجر مع بني الانسان . ويقال في تقاليد تلك البلاد السابقة إنه كان يتدخل في أعمال الناس فتقوده أهواؤه تارة إلى الخير وطوراً إلى الشر ، كما أنه لوحظ أن منحه تكون مع الشر مشئومة

وكان القسس يشيرون على أتباعهم وهم يعظونهم بأن يتجنبوا الاختلاط بشيطان هرتس بشكل مباشر أو غير مباشر

إن المشاهدين والممثلين في المسرح الآني كانوا ثلاثة فتيان يحتطبون ويحولون أحطابهم إلى فحم ، وكانوا عائدين إلى كوخهم ، وكان حديثهم دائراً حول شيطان هرتس وعن الراهب الذي كان يلعن هذا الشيطان الوديع المسالم فرجمه الأهلون بالحصى والحجارة قائلين له : إذهب لشأنك لتلعن الشياطين في بلاد غير بلادنا ، ثم جرهم الحديث إلى أن الذين يربطون علاقاتهم بهذا الشيطان تكون آخرتهم مشؤومة واستشهدوا بجواد السباق الأسود الذي منحه شيطان هرتس إلى الفارس أكبرت دورابتوالد والذي بفضله حاز قصب السبق في سباق برلين ولكنه سقط في الهاوية بسيده ولم يعلم أحد بخبرها إلى الآن

كان مارتان أصغر إخوته الحطابين الذين سبق ذكرهم يخالف أخويه الأكبر والأوسط في الاعتقاد بالشيطان ، وكان جسوراً جريئاً ماهراً في جميع الأعمال التي يقوم بها الجبليون وكان مقداماً في كل عمل يطلب منه أعمال المجازفة أو القوة وكان يضحك من حياء أخويه ويتسلق الجبال بكل سهولة وخفة .

قال لأخويه وهو يحاورهما : لا تقصا على هذه الخرافات فان الشيطان طيب وهو يعيش بيننا كأحد الفلاحين ، وكان يتسلق الصخور ويجوب الجبال كأنه يصطاد أو يرعى المعز ، ولما كان يحب غابات هرتس ومناظرها الطبيعية الخلابة فلا يتأتى أن يكون عديم الاهتمام بحفظ ساكنيها .

وحينما يكون خبيثاً شقياً متلكماً فكيف يكون تصرفه مع من ينتفعون بمنحه دون أن يتعهدوا له بأى تعهد ؟ وحينما تورد فحمك فى المسبك لديره بليز ذاك الشيخ الذى لايفوه لسانه إلا بالتجديف ، أفلا تفضل أن تأخذ منه نقودك ولا تأخذها من القسيس ؟ فليست إذن منح هـذا الشيطان التى تعرضك للأخطار ولكن سوء استعمالها والتصرف فيها . أما أنا فانه إن ظهر لى فى هذه الساعة سواء أكان باسماً أو عابساً فأننى أستمر فى حفر الأرض قبل أن يبرح مكانه ، وسأحسن التصرف فى نعمته التى يمن بها على وآمل أن أكون فى حماية ورعاية فرد أقوى منه .

فأجابه الأخ الأكبر بأن المتاع الذى ينال بطريق غير مشروع يندر أن يتصرف فيه صاحبه على أحسن وأفضل وجه . فرد عليه مارتان : إننى إذا امتلكت جميع كنوز هرتس فان ذلك لايغير شيئاً فى طباعى وصفاتى .

فقال له ماكس : يلزمك أن تتكلم باحتراس وتحفظ حينما تخوض فى مثل هذا الموضوع . وأراد أن يحول الحديث إلى موضوع آخر وانتقل إلى صيد الدياب الذى سيشرع فيه . وقد استمر بينهم الحديث إلى أن وصلوا إلى كوخهم القائم على سفح أكمة بواد ضيق بجبال بروكنبرج ، ثم حلوا محل أختهم فى مراقبة تحضير الفحم وكانوا يتناوبون مراقبة الفحم فينام اثنان ويراقب الثالث .

كانت نوبة ماكس والديك فسهر الساعتين الأوليين وقد دهش حينما شاهد على أكمة أمام كوخهم وحولها أشخاصاً كثيرين يدورون وتصدر منهم إشارات غريبة . ففكر فى بادىء الأمر أن يدعو أخويه ولكنه رأى أن أخاه الصغير يخالفهم فى الرأى وأنه لايستطيع أن يوقظ جورج دون أن يقلق مارتان ، ثم ظن أن مارآه ربما كان نتيجة وهم أوجده الحديث الذى دار بينهم عن الشيطان . وقد ظن أنه لا يستطيع أن يعمل شيئاً أحسن من الصلاة وأن ينتظر بقلق وفزع هذه المشاهدة . وبعد ما استمرت النار وتوهجت ثم انطفأت شيئاً فشيئاً وخيم الظلام لبث مضطرباً مدة نوبته مما شاهده .

حل جورج محل ماكس الذى ذهب لينام بدوره فشاهد النار التى رآها أخوه ، وكان حول النيران أشخاص تصدر منهم إشارات كأنهم يقيمون حفلة رمزية

ولو أن جورج كان أشد فطنة من أخيه الأكبر ولكنه كان جريئاً مقداماً ، وقد صمم أن يقترب من هذه المجيبة ليختبرها فاجتاز قناة صغيرة تجرى فى هـذا الوادى واقترب من النار حتى أمسى على رمية سهم منها فوجدها متأججة كما كانت

وكانت الأشخاص المحيطون بها أشبه بالأشباح التى نراها فى أحلامنا ولأول وهلة تحقق أن هؤلاء ليسوا من أهل الدنيا وقد رأى بينهم عملاقاً هائلاً بيده شجرة صنوبر قلعت بجذورها كان يستعين بها العملاق فى إسعار النار ولم يكن عليه من الملابس غير تاج وحزام من أوراق البلوط . ولما عرف جورج شيطان هرتس هلع فؤاده لأنه كان طبق الصورة التى كان يتحدث بها الرعاة والصيادون الذين رآهم يجولون فى الجبال فرجع مسرعا فى الهرب وبعد قليل من التفكير وخ نفسه على هذا الجبن وقرأ مزماراً من الزبور : « فلتبارك جميع الأمم الآله »

واتخذ طريق الأكمة حيث شاهد النار ولكنه دهش حينما لم يجد للنار أثراً

أضاء الفجر بأشعته الضئيلة ذاك الوادى ، ولاحظ جورج أن جبينه ينضح عرقاً ، بارداً وقف شعر رأسه من الفزع ووصل وهو يرتعد إلى المكان الذى شاهد فيه النار وكان به شجرة بلوط كبيرة كانت تظهر كأنها وسط النيران فلم يجد أثر أقدام، ولاحظ أن الكلأ والأزهار البرية لم تمس ولم يهشم منها شئ وكانت أوراق البلوط مخضلة بقطر الندى

رجع إلى كوخه وهو يرتعد من الهول وفكر مثل أخيه الأكبر وصمم ألا يتفوه بشئ مما رآه خوفا من أن يثير فيه تطلعا تصحبه المجازفة

جاء موعد سهرة مارتان عند صياح الديك مؤذنا برحيل الليل واقتراب الفجر . اختبر استمرار التنور الذى يجهز فوقه الفحم فوجده ضعيفا لأن مشاهدة جورج للشيطان وما حاق به من الهلع أنسياه واجبه من مراقبة النيران فأراد أن ينادى أخويه ولكنه رآهما فى نوم عميق فعالج النار وحده ولكن الأخشاب التى استعملها كانت رطبة خضراء وانتهى الأمر بأن خبت النيران . طفق يعدو باحثا عن حطب جاف ولما رجع وجدها قد انطفأت وكان هذا حادثا جللا يفقدهم عمل يوم . أخذ يقدح زنده فلم يفلح لأنه تشبع بالرطوبة . فلم يجد مناصا من استدعاء أخويه ولح على حين غفلة ضوءا مفاجئا فى الكوخ ففتح الباب فاذا هى الظاهرة العجيبة التى أذهلت أخويه ماكس وجورج

ظن فى بادئ الأمر أن الموهلر هاوسرس الذين كانوا معهم فى شجار مستمر لما انتابهم من غيرة الصناعة قد أغاروا على أرضهم فى الغابة ليسرقوا ما وصلت إليه أيديهم ، ففكر فى إيقاظ أخويه ليؤدبوا هؤلاء الجريئين ولكنه حينما شاهد إشارات الملتفين حول النار كأنهم يعملون عملا غير فكره واستنتج أن هذه حادثة غير حقيقية — مهما كانوا رجالا أو شياطين ومهما كان شغلهم سأذهب إليهم أسألهم جذوة من النار أضرم بها التنور . ورفض أن يوقظ أخويه وخشى أن يحول استحياء أخويه دون مقصده ثم تناول رمحا مما يصطادون به الدببة وذهب وحده ليجعل حداً لهذه الواقعة

سار بشجاعة تفوق شجاعة أخيه جورج واجتاز القناة ثم صعد الأكمة وتقدم صوب هذه الجماعة وعرف أن الرجل الذى يتزعمها ليس إلا شيطان هرتس فأصابته رعدة كانت الأولى فى حياته ولكنه تذكر أنه طالما تمنى هذه الفرصة السانحة فلذلك تجددت شجاعته، فتقدم نحو النيران بثبات وجرأة فظهر له أن هؤلاء ظهرت عليهم ملامح غريبة خارقة للمادة وقابلوه بضحك متواصل وقع فى أذنه مزعجا عنيفاً

— من أنت ؟ سأله المملاق وقد ظهرت على سحنته الدميمة ملامح الغضب والشدة

— أنا مارتان ولديك الفحام، وقد أجاب بكل جرأة وبسالة ، ومن أنت يا هذا ؟

— أنا ملك الجبال والمناجم . وكيف تجاسرت على تعكير أسرارى ؟

— قد أتيت لأطلب جذوة نار لأوقد بها تنورى ثم سأله بكل جرأة : وما هى الأسرار التى تحتفل بها هنا ؟

— فرد عليه الشيطان مازحاً : إننا نحتفل بقران هرمس بالتنين الأسود ، فهيا خذ النار واذهب لشأنك فما من مخلوق يطيل فينا النظر إلا ويهلك

أنشب مارتان سنان رمحه فى قطعة كبيرة من الخشب ملتهبة وعاد بها إلى كوخه وسط ضحك مستمر وقهقهة عالية دوى صوتها فى الوادى ثم وضعها وسط الأحطاب الجافة ليوقد تنوره، ورغماً من جهده المتواصل وكيره الكبير انطفأت الخشبة المستمرة . ثم التفت إلى النار المعهودة فرآها مازالت مستمرة فوق الأكمة فظن أن الشيطان أراد أن يلعب معه دوراً فعاودته جرأته وصمم أن يعود إلى الأكمة ليأخذ جذوة أخرى فأخذها دون أن يصادف أية معارضة ولكنه لم يفلح فى إشعالها كالمرة الأولى وأراد أن يجرب المرة الثالثة فأخذ قطعة كبيرة وذهب فسمع الصوت يخاطبه : حذار أن تعود للمرة الرابعة

حاول أن يسعر النار ويبذل كل جهده ولكنه أخفق . يئس وقطع الأمل وارتمى على سريره الذى اتخذه من أوراق الأشجار وقرر أن ينتظر إلى الصباح ليطلع أخويه على جميع ما حصل له فنام من التعب واضطراب فكره . استيقظ فى الصباح على أصوات الفرح والدهش وصراخ أخويه فانهما حينما شاهدا التنور خامداً أخذا يخرجان الخشب منه ويعالجان إيقاده فوجدا فى الرماد ثلاث سبائك ضخمة فعرفا فى الحال أنها من الذهب الخالص

ولما حدثهما مارتان عن الكيفية التى بها أصبحت هذه الثروة فى حوزتهم هدأت أعصابهم لأن ما رآه فيما مضى جعلهما يثقان بحديث أخيهما ولا يشكان فيه ، وقد سولت لهما نفساهما أن يشاطرا أخاهما هذه الثروة

اعتبر مارتان نفسه رئيس الأسرة واشترى ضياعاً وغابات وبنى قصراً عظيما وحصل على براءات الشرف ومنح نفس الامتيازات التى تمنح للبارونات العظام الذين فى جواره . ولشجاعته فى الحرب وخصومة أعدائه لم ينل منه أعداؤه الذين كانوا يحسدونه على علوه الفجائى وغروره العاتى . لم يلبث مارتان ولديك أن أظهر قدرة جديدة تدل على أن قليلاً من الناس من ينظر فى عواقب ما تنتجه الثروة المفاجئة ، إذ ظهرت عيوبه التى أخفاها الفقر ، ففسدت أخلاقه ، وأصبحت الأهواء تجر بعضها ، فأيقظ شيطان البخل شيطان الكبرياء ، واستعان الاضطهاد بالقسوة والوحشية

استمر مارتان فى غيه وجرأته فحقد عليه الناس من سراة وفقراء لكونهم رأوا رجلا سافلا علا فجأة ونفذ فيهم قوانين الاقطاعيات بقسوة همجية

انكشفت عيوبه وأصبح ممقوتاً حتى من رجال الدين الذين كانوا يلقبونه بشريك الشياطين والساحر لأن ثروته تضخمت بأساليب جهنمية ولم يمنح جزءاً صغيراً منها إلى الكنيسة حتى يبارك فى باقى ثروته . وقد حصلت له حادثة كانت سبباً فى سقوطه

أقام دوق برونسويك ، وهو الحاكم ، برجاساً ودعا إليه نبلاء الألمان ، وكان مارتان ولديك متقلداً أفخر الأسلحة مصحوباً بأخويه متبوعاً بحاشية كبيرة العدد والعدد . وقد ساقته وقاحته لأن يظاهر وسط الفرسان النبلاء وأن يطلب منهم أن يدخل فى المضمار ، فارتفع ألف صوت قائلين : لا نستطيع أن نتحمل اختلاط لحام بالفرسان النبلاء فى حلبة ألعاب الفروسية ؛ فاغتاظ مارتان وغاب صوابه واستل سيفه وضرب الفارس الذى عارضه فى دخوله إلى المضمار، وشهر مائة فارس سيوفهم فى الحال لمعاقبة هذه الجريمة ، فدافع ولديك دفاع الأسود ثم قبض عليه فى النهاية وحوكم أمام ماريشالات البرجاس ،

وحكم عليه بقطع يمينه وتجريده من ألقاب النبلاء وأن يطرد من المدينة

وحينما جرد من سلاحه ونفذ فيه الحكم ترك للرعاع فانبعوا هذه الضحية البائسة التي جنى عليها الطمع وطفقوا يسبونه سائحين : « أيها الساحر الظالم » وانهالوا عليه بأفظع الشتائم وأشنع الاهانات فتركته حاشيته وولت الأدبار . ثم أقبل أخواه وخلصاه من أيدي الغوغاء، ولما شفوا غليل انتقامهم منه تركوه حينما رأوه مشرفاً على الاغماء من فقد دمه وتعذيبه ، وقد قسا عليه أعداؤه حتى أنهم لم يسمحوا بنقله إلا على عربة لحم من التي كان يشتغل عليها حينما كان لحاما فوضعه أخواه على حزمة من قش فوق العربة وأرادا أن ينقلاه إلى مكان أمين قبل أن يريحه الموت من آلامه

ولما سارت أسرة ولديك بهذه الطريقة المحزنة واقتربوا من بلدهم الأصلية رأوا عن بعد في المضيق الواقع بين الجبال شخصاً يتقدم نحوهم ظنوه في بادئ الأمر شيخاً هرماً ولكنه كلما كان يقترب ظهرت قامته الهائلة ثم اختفت عباءته من كتفيه واستحالت عصاه إلى شجرة صنوبر قلعت بجذورها ، ثم ظهر أمام أعينهم شيطان هرتس فارتعدوا من الهول ، وحينما وقف أمام العربة التي حملوا عليها أخاهما ظهرت على ملامحه هيأة أمير محتقر ، ثم قال بخبث ودهاء لمارتان : « كيف وجدت النار التي أشعلها خبثي ؟ » وما أتم قوله حتى جمد الدم في عروقهما من الخوف ولكن الجريح عاوده نشاطه وقوته ونهض ولوح بقبضة يده الباقية مهدداً الشيطان ؛ وما كان من هذا اللعين إلا أن قهقه بتهكم وخبث ، ثم اختفى عن العيون

تملك الفزع الأخوين ، ثم اتجها نحو دير قائم في غابة صنوبر على قارعة الطريق ، فتلقاهما راهب بالترحاب وكان حافي القدم طويل الذقن ، ولم يعش مارتان غير الوقت اللازم لاعترافه لأنه لم يعترف منذ أقبلت عليه النعم الفجائية مع أن مارتان كان يساعد الغوغاء على رجم هذا الراهب المسكين وطرده من قرية مور حنبرودت قبل هذا التاريخ بثلاثة أعوام . ويظن أن هذه الأعوام التي أقبلت فيها السعادة بكل تسامح كان لها ارتباط خفي بالرحلات الثلاث التي ذهب إليها مارتان ليرى النار الغريبة

ثم دفن مارتان في الدير وترهب أخواه إلى أن وافاهما الأجل المحتوم ، وبقيت أرض مارتان خلاء ولم يقبل أن يمسها أحد إلى أن وضع يده عليها الامبراطور ولم يقترب الحطابون ولا عمال المناجم من أطلال القصر معتقدين أنه أصبح مأوى للشياطين

وقد جعل مارتان ولديك من نفسه مثالاً للمصائب التي يستهدف لها كل من حصل على ثروة بطريقة غير مشروعة ثم أساء التصرف فيها

محمد كامل عجاج

وحي بغداد

صور وجدانية وأدبية واجتماعية

بقلم الدكتور زكي مبارك

يطلب من المكاتب الشهيرة

وثمن النسخة عشرة قروش